البيان بما فى دين
بعض العامة من أوهـــام

دكتور

محمد خضر إبراهيم خضر

مدرس بقسم العقيدة والفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا أنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله.

أما بعد:

فقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين حاملين بين أيديهم مشاعل التوحيد دعوة إليه ومحاربة للناس من أجله فالأول قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾ [1]، والثاني يؤيده قول النبي -ﷺ-: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله "[2].

من ثم فإن مسألة التوحيد من أعظم مسائل الدين وأجلها ولهذا كانت حياة النبي -ﷺ- حافلة ببيان التوحيد والتحذير من الشرك والبراءة من أهله وكان يعلم أصحابه حدوده وقواعده فها هو ذا يقول لمعاذ-ﷺ-: هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟...فقال معاذ: "...الله ورسوله أعلم فقال رسول الله-ﷺ-فأن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا.[3].

وعلى هذا المنهج الذي حدده رسول الله - ﷺ-لأصحابه ساروا ولم يشذوا عنه قيد أنملة في التحذير من الشرك وسد ذرائعه ولم لا؟ فالتوحيد هو أصل الإسلام الذي لا يصلح أن ينسب إنسان إليه بدونه وهو مدار النجاة يوم القيامة مصداقاً لقوله قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [4].

وليس المراد بهذا التوحيد هو فقط مجرد إثبات وجود الله وأنه وحده الخالق العالم بغير اتباعه بلازمه وما يؤصله في نفوس العباد من توحيد العبادة وإخلاصها له وحده دون سواه استجابة لنداء الحق جل وعلا: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

---

(1) سورة: الأنبياء - الأية: ٢٥.

(2) سنن الدرامي ١٢٢٩-١٩٤ وابن ماجه ٧١ وسنن الترمذي ٢٥٣٦.

(3) صحيح البخاري-كتاب الشهادات ج ٣ -ص ٧ رقم ٢٦٤٤.

(4) سورة: النساء - الأية: ٤٨.

حُنَفَآءَ ﴾ [1]، حتي يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به وأهل الشقاوة التاركين لـه ومـا مـن شك فى أن هذا الأصل لم يختلف عليه المسلمون ولكـن ظـهرت عوامـل أدت إلى تخلـف قطاعـات كبيرة من الأمة نتيجة جهل الكثير بالحقائق الشرعية التى ينبغي ألا تخرج عن دائرة المُسلمَّات.

ترتب على ذلك حدوث نوع من الغفلة أدت إليها عمليـة تزييـف واسـعة للمخالفـات الشرعية وكان من هذه المخالفات تمرير بعض الصور الشركية بدون نسبتها إلى حقيقتها ثم الجدال والمناظر فى هذه الحقيقة والتهوين فى مدي أثرها على حقيقة السلام.

وهذا ما نبه إليه عمر بن الخطاب بقوله :" ...يوشـك أن تنقضـي عـري الإسـلام عـروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية".

ومن صور هذا التزييف الذي أصاب الأمة فى أعز ما تملك وهو التوحيد ما أُحْـدِثَ حـول القبور والأضرحة والادعاء لأصحابها من الكرامات مـا لا يخطـر علـى قلـب بشـر مـن الأسـاطير والأوهام وأن بيدهـم تصريف أمور الكون، فهذا لم ينجب فيكفيه زيارة إلى قـبر هـذا الـولى أو ذاك فيرزق بالبنين والبنات وتلك قد أدركها قطار العنوسة فما عليـها إلا أن تيمـم وجهـها شـطر هـذا الضريح فتفك عنوستها.

إلى غير ذلك من الصور الكثـير فيذبـح العامـة الذبـائح عنـد القبـور ويسـتغيثون بـهم ويطلبون منهم العفو والصفح وأن يفرجوا عنهم ما هم فيه من هم وغم وكرب وضيق فى الأرزاق من أمور لا يملكها إلا الواحد القهار وإذا ذهبت لتقوم ما عوج أو تصلح ما فسد اتهمت بأنك من أهل الزيغ والضلال والزور والبهتان وعما قريب سوف تصيبك لعنة الأولياء والأصفياء وإنك قد بؤت بالخسران بمعاداة الأولياء.

وإذا تملكك العجب من هذا فالعجب أنه مع كثرة المعاهد والكليات التى تـدرس علـوم التوحيد فى كل مكان إلا أن اتباع هؤلاء فى ازدياد وانتشار وكأن، هناك أياد خفية تعمل على تقويـة هذه الطوائف وحسبك أن تعلم لتقدر حجم الداء الذي نحن بصدده بالعلاج أن عدد زائـري مقـام أحد الأولياء قد تجاوز فى ليلة الاحتفال عدد الإثني مليون فكيف بغيره من الأولياء.

---

(1) سورة: البينة: الأية: ٥.

من هنا يري العقل أن المهمة شاقة والامتحان جد عسير على كل باحث منصف أراد ولوج هذا الطريق ليقوم ما اعوج ويصلح ما فسد من عقيلة القوم.

فبحول من الله وقوة كانت مادة هذا البحث والذي عنونت له بعنوان،،،

البيان بما فى دين بعض العامة من أوهام

فإلى نقاط البحث وعلى الله التكلان :

الرسول -ﷺ- وسد ذرائع الشرك

المطلع على حياة الرسول -ﷺ- يري أنه كان حريصا دائما على قطع طريق الشرك وكل سبيل يوصل إليها فقد كان فى أشد التوخي والتحري لحماية جنبات التوحيد من كل شائبة قد تعكر صفوه صغرت أو كبرت حتى فى أدق المسائل بحيث لا يترك مجالا لمرتاب أو ضعيف النفس قد يضله هواه أو يقذف به فى موارد التهلكة.

فعندما وقف أحد الخطباء بين يديه قائلا: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوي فقال له-ﷺ- بئس خطيب القوم أنت" ولم لا ؟...لأنه أراد أن يسوي بين الله ورسوله فجمعهما فى ضمير واحد.

ويأتيه رجل آخر ويقول له : ما شاء الله وشئت فيقول له : أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده.

فهذان النصان يؤكدان حرص المصطفي -ﷺ -على أن يظل مقام الألوهية محفوظاً من أي توهم يتوهمه العامة بسبب قرب المصطفي من الحق، لذا لم يترك هذا الخطيب أو ذاك أن يقول كلمته دون أن يبين ما فيها من أغاليط مما ينافي مقام الألوهية.

وزيادة فى الحرص منه-ﷺ- نراه يطلق دعوته فى التحذير والتنفير من بعض الأعمال والتي قد ينفذ الشيطان من خلالها للإنسان فيرده عن دين الإسلام.

وفيما يلي عرض لبعض الصور :

ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده أن النبي -ﷺ-رأي رجلا بيده حلقه من صفر فقال : ما هذه؟...قال من الواهنة، قال انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا لو مت وهي عليك ما أفلحت وأخرج أيضا فى مسنده: "...من علق تميمةً فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا ودع الله

له"[1]، وفي رواية ومن علق تميمة فقد أشرك وعن ابن مسعود قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول :"...أن الرقي والتمائم والتوله شرك"[2].

فانظر كيف جعل الرسول -ﷺ- الرقي والتمائم والتوله شركا وما ذلك إلا لكونها مظنة لأن يصحبها اعتقاد أن لغير الله تأثير فى الشفاء من الداء وفى المحبة والبغضاء فكيف بمن نادي غير الله وطلب منه ما لا يطلب إلا من الله، واعتقد استقلاله بالتأثير أو اشتراكه مع الله عز وجل[3].

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله -ﷺ- إلى حنين ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين شجرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقلنا أجعل لنا ذات أنواط كما لهم فقال النبي- ﷺ - : الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل "اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون"[4].

فهؤلاء طلبوا من النبي-ﷺ- بكلمات أربع (لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه لعن الله من أوي محدثا لعن الله من غير منار الأرض)[5].

وأخرج أحمد بن أبي طالب بن شهاب أن رسول الله - ﷺ -قال دخل رجل الجنة فى ذباب ودخل النار رجل فى ذباب-قالوا كيف يا رسول الله قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتي يقرب إليه شيئا فقالوا لأحدهم قرب ولو ذبابا فقرب فخلو سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر قرب فقال ما كنت أقرب لأحد غير الله فضربوا عنقه فدخل الجنة ، فانظر لعنة الرسول -ﷺ-لمن ذبح لغير الله وإخباره بدخول من قرب لغير الله النار، وليس فى ذلك إلا مجرد كون ذلك مظنة للتعظيم الذي لا ينبغي إلا لله فما ظنك بما كان شركا بحتا وقال بعض أهل العلم إن إراقة دماء الأنعام عبادة لأنها إما هدي أو أضحية أونسك وكذلك ما ذبح للبيع لأنه مكسب حلال فهو عباده.

---

(1) مسند الإمام أحمد ج٤ ، ص٢٣٤.

(2) سنن ابن ماجه ج٣ ص ٤٦، تعليق التمائم رقم ٣٥٣٠.

(3) الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد ص٩-طبعة المكتبة السلفية القاهرة.

(4) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٦٥، الترمذي ج٤ ص ٢٩٤، رقم ٢١٠٦.

(5) الدر النضيد ص٩، طبعة المكتبة السلفية القاهرة.

يتحصل من ذلك أن إراقة دماء الأنعام عبادة وكل عبادة لا تكون إلا لله فإراقة دماء الأنعام لا تكون إلا لله[1].

وفى إطار التنزيه الذي أراد النبي -ﷺ- أن يؤسسه فى قلوب المسلمين نهيه -ﷺ- عن الحلف بغير الله وقال" من حلف فليحلف بالله أو ليصمت"، وقال من حلف بما ليس فى الإسلام لم يرجع إلي الإسلام سالماً.

وروي الترمذي فى مسنده أن رسول الله -ﷺ- قال: من حلف بغير الله فقد أشرك[2].

والآن انتقل بك أيها القارئ الكريم إلى مشهد آخر يؤكد لنا مدي حرص النبي -ﷺ- على أن تظل أمته من بعده متمسكة بالتوحيد بعيدة كل البعد عن الشرك هذا المشهد هو مشهد الوداع وآخر عهد للصحابة مع النبي -ﷺ- قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

فيروي لنا البخاري ومسلم عن عائشة وعبد الله بن عباس قالاً :"...لما نزل برسول الله -ﷺ- يعني الموت طفق يطرح قميصه على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال لعنة الله على اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مما صنعوا[3].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت لما مرض النبي -ﷺ- تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها ماريه- وقد كانت أم سلمة وأم حبيبه قد أتيتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاويرها، قالت فرفع النبي -ﷺ- رأسه فقال: أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة[4].

تلك هى وصية النبي -ﷺ- يودع بها أصحابه فعلى الرغم من ثقل المرض وشدة الألم إلا أن النبي -ﷺ- يعيدها المرة بعد الأخرى رحمة بأمته وشفقة عليها وخوفا عليها من الزيغ والانحراف كالذي حدث فى الأمم السابقة[5].

---

(1) الدر النضيد ص ١٠ طبعة المكتبة السلفية القاهرة.

(2) مسند الإمام احمد ج ٢ ص١٣٩.

(3) صحيح البخاري كتاب الجنائز ج ٢ ص٨٧

(4) صحيح مسلم بج ١ ص ١٦٦، رقم ٦١/١٤٥١١.

(5) دمعة على التوحيد ص ٦ كتاب رقم ١٩٩٩١.

ويبلغ الحرص مداه من النبي -ﷺ- على تأكيد هذا الأمر عندما لم يكتف -ﷺ- بسماع بعض الصحابة منه هذه الوصية بل نراه أن رسول الله -ﷺ- قال فى مرضه الذى مات فيه: ادخلوا علىَّ أصحابي فدخلوا عليه وهو متقفع ببردة معافرى.

فكشف القناع فقال : لعن الله اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[1].

ففي هذه اللحظات الأخيرة يكون الهم الأكبر للنبي -ﷺ- الذي يحرص على بيانه وتوضيحه لأمته بشكل جلى لا خفاء فيه ولا غموض هو حماية التوحيد من الشرك والبدع والتحذير من الغلو والزيغ ولم لا؟...فإن معظم النار من مستصغر الشرر، ألم يفسد الشيطان على الناس علاقتهم بربهم وتوحيدهم إياه من خلال تعطيهم للصلحاء منهم.

ففي الصحيح عن ابن عباس -رضي الله عنه- فى تفسيره قوله تعالي قال : ﴿وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾[2]، قال هذه أسماء رجال من قوم نوح لما هلكوا أوحي الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم يعبدوا حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت[3].

من هنا يتضح لنا المراد من نصوص أحاديث الرسول -ﷺ- التى تنهي عن تقديس القبور وتعظيم أهلها لأن تعظيم الرمز ذريعة للشرك وهذه العلة التى لأجلها نهي الشارع هى أشركت بتماثيل القوم الصالحين وبتماثيل يزعمون بأنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك فلان يشرك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته وصلاحه أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله ولهذا نجد أقواماً كثيرين يتضرعون عندها، ويتخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يعبدونها فى المسجد ولا فى السحر[4].

وبعد أن استعرضنا لهذه النصوص القاطعة من النبي -ﷺ- الدالة على قطع ذرائع الشرك وهدم كل شيء يوصل إليه..

---

(1) ورد بروايات مختلفة فى صحيح مسلم والبخاري.

(2) سورة: نوح - الأية: ٢٣.

(3) الدر النضيد ص ١٢ الألوهية لابن تيمية ص ٣٢١.

(4) ابن تيمية اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٣٤، مطبعة السنة المحمدية -القاهرة.

فقال تعالى معي أخي الكريم لنري سويا ماذا فعل الصحابة مع هذه النصوص فهم أكمل الناس إيمانا وأفضلهم فهما لمراد النبي -ﷺ- ولا أظن أن أحد يخالف في أن عقيدة أولئك الرجال كانت هى العقيدة الصافية صفاء ماء البحيرة حال سكون الرياح القوية قوة الجبال الرواسي المتينة متانة العروة الوثقي وقد غير الله بأصحاب تلك العقيدة مسار التاريخ الإنساني[1].

فها هو عمر بن الخطاب يخرج إلى الحج فلما أتم حجه ورجع والناس يبتدرون فقال ما هذا؟...فقالوا مسجد صلي فيه رسول الله -ﷺ- فقال : "هكذا هلك أهل الكتاب اتخذوا آثار أنبيائهم بيعا من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل، ومن لم يعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل.

فعمر -رضي الله عنه-أراد أن يقطع الطريق على أولئك الذين أرادوا أن يعطوا للأماكن التي صلي فيها الرسول -ﷺ-من التقديس والإجلال فبينن لهم أن هذا الفعل كان سببا فى هلاك الذين من قبلهم وأن الأماكن بالنسبة للمسلم سواء وأنه لا فرق بين مكان صلي فيه النبي وآخر لم يصلي فيه لأن العبرة بإخلاص العمل لله.

ورأي عبد الله بن عمر فسطاطا على قبر عبد الرحمن فقال : انزعه يا غلام إنما يظله عمله[2].

وهذا أبو هريرة يوصي "بأن لا يضربوا على قبره فسطاطا"، هذه النماذج التي أوردناها تؤكد بما لا يدع مجالا لمرتاب مدى حرص الصحابة على الاقتداء بالنبي -ﷺ-فى البعد عن الشرك وعن كل شيء يوصل إليه وسد الأبواب التى توصل إليه وهي تؤكد أيضا على أنه لو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحاً لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر علما لذلك ودعوا عنده وسنوا ذلك لمن بعدهم ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم وكذلك التابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله-ﷺ- فى الأمصار عدد كثير وهم متوافرون فما منهم من استغاث

---

(1) العقيدة فى الله ص ٥-عمر سليمان الأشقر ص١ الفلاح.

(2) إغاثة اللهفان لابن القيم، ج١ ص٣١٩، دار التراث.

عند قبر صاحب ولا دعاه ولا دعا به ولا دعا عنده ولا استسقي به ولا استنصر به ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله بل على نقل ما هو دونه.

الآن فقد ثبت عن الصحابة أنهم لم يدعوا في يوم من الأيام صاحب قبر أو استغاثوا به فإنه لا يجوز بأي حال من الأحوال لأحد من عامة الناس أن يثبت لقبر ما من الكرامات ما ليس بغيره من القبور فتقدم له العطايا والقرابين.

لأنه لو كان الأمر كذلك لوجدنا صحابة النبي -ﷺ- به قائمين لكنهم لم يفعلوه فوجب علينا أن تنقضي أثرهم ونسير على نهجهم.

الداء بين الجذور والواقع (تقديس القبور)

تقديس القبور والأضرحة مفهوم لم يعرفه الإسلام بل إن النصوص الثابتة نهت نهياً صريحا عن تقديس القبور والذي يمثل خطوة أولي في طريق الانحراف نحو الشرك فمن ذلك:

قول الرسول -ﷺ-لا تجعلوا بيوتكم مقابر ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني أينما كنتم[1].

بل كان من دعائه -ﷺ-اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[2].

وها هو علي بن أبي طالب يقول لأبي الهياج: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله-ﷺ-أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته.

ونهي رسول الله أن يجصص القبر أو يقعد عليه وأن يبني عليه.

وعلى هذا سار السلف الصالح من صحابة الرسول-ﷺ-ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام لا في الحجاز ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب ولم يكن قد أحدث مشهد على قبر نبي ولا صاحب ولا أحد من أهل البيت ولا صالح أصلا بل عامة هذه المشاهد محدثه بعد ذلك وكان ظهورها وانتشارها حين

---

(1) الفتاوي ج٢٧ ص٤٦٦.

(2) السابق ج٢٧ ص١٦١.

ضعفت الدولة العباسية وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة الملبسون على المسلمين وفشت فيهم كلمة أهل البدع وذلك من دولة المقتدر فى أواخر المئة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية فى أرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر.

ويري ابن تيمية أن تعظيم القبور وأهلها انتشر لما بدأت المحدثات تدب فى حياة المسلمين فظهرت بدعة التشيع التى هى مفتاح باب الشرك ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد ورووا فى إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله وقفت وعليه من أكاذيب أهل الكتاب حتي صنف كبيرهم ابن النعمان كتابا فى مناسك الحج المشاهد وكذبوا فيه على النبي وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه وغيروا ملته وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد فصاروا جامعيين بين الشرك والكذب.

ولم يكتف الشيعة ببناء المشاهد والقبور على من مات بين أيديهم بل أنهم (تتبعوا قبور من مات قديما ممن يعظمونهم من آل البيت كعلي بن أبي طالب والحسين ومن سموهم بالأئمة من أهل البيت وراحوا يبنون على شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور[1].

وكانت البدايات الأولي لذلك فى بداية القرن الثالث الهجري ولكن الحق يقال أن خلفاء بني العباس شرعوا يهدمون ما بناه الشيعة وما افتروه كما ذكرا بن كثير فى البداية والنهاية من أن الخليفة العباسي المتوكل أمر فى سنة ٢٣٦هـ بهدم القبر المنسوب إلى الحسين بن على-رضي الله عنه-وما حوله من المنازل والدور ونودي فى الناس أن من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهب إلى المطبق فلم يبق هناك بشر واتخذ ذلك الموضع مزرعة تحرث تستغل.

ثم انتقلت لعدوي من الشيعة إلى الصوفية فساروا على نفس المنهج فجعلوا أهم مشاعرهم زيارة القبور وبناء الأضرحة، والطواف بها والتبرك بأحجارها والاستغاثة بالأموات بل جعل المتصوفة جل همهم بناء هذه القبور وتعظيمها ودعوة الناس إليهما وجعلوا أعظم مشاعرهم الطواف بها والتبرك بها ودعائها من دون الله عز وجل بل لا يوجد شيخ متبع إلا وبني لنفسه قبة كبيرة ومقاما وهكذا أعادوا من جديد شرك الجاهلية الأولي[2].

---

(1) البداية والنهاية ص ١ ص٣٦٥.

(2) الفكر الصوفي فى ضوء الكتاب والسنة ص ٦٥٠ عبد الرحمن عبد الخالق.

وأصبح أيضا تقديس القبور والأضرحة فى عرف الصوفية لازما من لوازم الطرق ولما تمكن الصوفية بحيث لا يتصور أحد وجود طريقة صوفية من غير ضريح، أو أكثر تقدسه تمكن الداء من جسد الامة ظهرت الحاجة إلى تعدد الأضرحة والمزارات لتلبي رغبات من صرعتهم الأوهام وضاق بالقبوريين أن يتحروا ثبوت قبور الأولياء المشهورين لدي جمهورهم ولأن الحاجة أم الاختراع كما يقال فقد وجدوا لهذه الأزمة بعض المخارج والحيل[1]، والتي ظهرت من خلالها كثير من القبور والأضرحة.

وذلك عن طريق ما يسمي بأضرحة الرؤيا "فإذا رأي ولى من الأولياء فى منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجداً أو ضريحا لأحد من أهل البيت أو الولي المسمي فى الرؤيا فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه[2].

وهي الحجة نفسها التي من أجلها أقيمت مزارات الشهداء عند النصاري حيث أصبح لكل قرية مزارا يحوي عظاما لبعض الموتي المجهولين أخرجت من القبور ومنحت كل التبجيل والاحترام دون أدني دليل يثبت أنها على الأقل بقايا مسبحين ويخلع على هذه الرفات أسماء مسيحيين وألقاب لأئقة وفى حالات كثيرة كان المرجع الوحيد فى هذا الشأن حلم أو رؤيا لكاهن أو راهب مسيحيين[3].

وتلك الحجة أيضا هى التي أسس عليها اليهود مزاراتهم من القبور المقدسة فبين "فترة وأخري يطلع على الناس شخص فى إسرائيل يعلن عن اكتشاف قبر مقدس أو إقامة مزار له لحلم قد رآه ليصبح قبره أو مقامه مقصداً للرائحين الغادين[4].

وعلى ضوء هذا انتشرت فى بلاد المسلمين كثير من الأضرحة والمزارات لمجرد رؤيا رآها أحد العامة فظهرت كثير من الأضرحة المزعومة والمكذوبة فى طول البلاد وعرضها ونراهم بعد ذلك من أجل أن يملوا الباطل ويزينوه فى أعين العامة يذهبون إلى القول بأن الأرض بالنسبة

---

(1) كتاب البيان ص ٢٢.

(2) مساجد مصر وأولياؤها ج١ ص ١٠٢-١٠٣ إسعاد ماهر.

(3) موالد مصر المحروسة ص ٨١، عرفه عبده على طبع ونشر مركز العين القاهرة ١٩٩٥م.

(4) اعتراضات سياسية على ظاهرة تدخل الجافامين فى الانتخابات الإسرائيلية جريدة الحياة ع ١٣٠١٣، مقال لجعفر هادي حسين.

لأجسام الأولياء كالماء للسمك ، بمعني أن الولى قد يكون إلى مكان ثم يسبح فى مكان أخر وهكذا ليجيب مريديه وزائريه حول أضرحة متعددة.

وعلى الجملة فإن غالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء: إنه يدعي أنه رأي مناما أو أنه وجد بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه، إما رائحة طيبة أو توهم خرق عادة ونحو ذلك وإما حكاية عن بعض الناس أنه كان يعظم ذلك القبر [1]، حتي يتسني للعامة تصديقه ومن ثم الوقوع فى براثن الانحراف والبعد عن منهج الله.

ولم يقف الأمر عند حد نسب القبر أو الضريح زورا وبهتانا إلى أناس لها من الاحترام لدي الناس بل تعداه إلى اختلاق بعض الشخصيات من الوهم والعدم ونسبة الأضرحة إليها.

الانحرافات العقدية عند القبورية

على الرغم من وضوح النصوص الشرعية والتي تدعو الإنسان إلى إخلاص العبادة لله، وأن يتوجه بدعائه واستغاثته لله، إلا أن المتابع لأحوال أولئك الذين انخرطوا في سلك تقديس القبور والأضرحة وتعظيم أهلها يجد انحرافا عن الصراط المستقيم الذي رسمه الله لعباده انحرافات قد تهوي بالإنسان إلى واد سحيق، بل هى قد أودت بالفعل بهم إلى غياهب الظلمات فأفسدت على القوم دينهم وعقيدتهم فى الله يقول (جولد زهير) بقي كثير من عناصر الديانات السابقة للإسلام واستأنفت حياتها فى المظاهر العديدة الخاصة بتقديس الأولياء.

وفى الحق ليس من شيء أشد خروجا على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام الماسخ لحقيقته وأن السني الصادق الحريص على إتباع السنة لابد أن يعد ذلك من قبيل الشرك الذي يستثير كراهيته واشمئزازه.

ويتحدث عن تقديس العامة للأولياء وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى التى هي موضع عبادتهم التى يرتبط بها أحيانا ما يظهره العامة من تقديس وثني غليظ لبعض الآثار والمخلفات بل أن العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة، بل إن الواحد منهم

---

(1) مجموع الفتاوي ج٢٧ ص٦٢-٦١.

يخشي أن يحنث فى يمين حلف فيه باسم الولي أكثر مما يحمر خجلا عندما يحلف بالله باطلا[1]، ويقول رونلدسن" بالرغم من التوحيد المصرح به فى القرآن فإن الأمم الإسلامية لازالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية، فإن من أهم الصفحات فى الحياة الدينية للعوام فى جميع الأمم الإسلامية هو تقديسهم لقبور الصالحين وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبورهم وآثارهم فيفرح بذلك الإمام، ويشفع لهم وينجيهم من الفقر والمرض[2].

ويقول جوتيه، وتقديس الأولياء إلى درجه قد تقرب من العبادة إلى الحد الذي نراه انتشر بعد فى جميع الأقطار الإسلامية يشير فى الحقيقة إلى رد فعل من الأمم والشعوب التي فتحها الإسلام ضد العقلية الإسلامية التي لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدي الله[3].

وهكذا يدع هؤلاء القبوريون وأشياعهم الفرصة سانحة لأعداء ليكيدوا الإسلام من خلال أفعالهم وتصرفاتهم التى لا تمت لإسلام بأي صلة من قريب أو بعيد فتراهم يرمون الإسلام بأبشع التهم زوراً وبهتانا وسندهم فى ذلك ما يفعله أولئك الذين زين لهم الشيطان أعمالهم.

ولقد سجل هذا الخزي والعار مستشرق انجليزي صاحب الصوفية فى مصر فأعطته العهد ثم مضي بعد ابتلائهم يسجل عليهم مخازيها ويرمي بها المصريين جميعا فى كتابه فيقول" ويزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سيبذلون عليهم البركات إما يقصد البرء من المرض أو طلب النسل، ويعتبر المسلون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ويقدمون لهم النذور"[4] والراصد لأحوال القبوريين يري العجب العجاب حيث أعطوا لأصحاب القبور من الصفات التى لا يوصف بها إلا الواحد الديان فهم عندهم يسمعون ويبصرون ويجيبون من يتوجه إليهم، وإنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وإن لهم القدرة فى التصرف والتأثير فى الكون بما ليس فى طاقة البشر.

---

(1) العقيدة والشريعة ص ٢٣٢.

(2) هذه هى الصوفية ص ١٠٢، عبد الرحمن الوكيل بيروت.

(3) السابق ص ١١٥.

(4) روح المعاني للألوسي ج٢٤-ص١١.

كما زعموا أيضا أن فى الأضرحة وأصحابها القدرة على رفع الوضع فى الدنيا والآخرة، وتفريج الكربات وقضاء الحاجات ومحو الذنوب وغفرانها.

"بل وصل الأمر بهم إلى القول بأن الولى أسرع إجابة من الله عز وجل"، وبناء على هذا التصور المنحرف لهؤلاء انزلقت أقدامهم إلى مواطن الشرك فلقد توجه القبوريون إلى الأضرحة وأصحابها بالعبادات والتقربات التي يصح صرفها إلى الله ففضلا عن تبركهم بها على وجه غير مشروع وجعلهم إياها عيدا فإنهم عظموها كما لو كانوا يعظمون الله سبحانه وتعالى فأقسموا بها، واستشقوا بها، واستنصروا بها ولاذوا بها ودعوها واستغاثوا بها، وذبحوا لها، ونذروا لها وطافوا حولها وسيبوا لها السوائب وساقوا إليها الهدي.

فإذا بدأنا بعرض ما يقوم به أولئك القبوريون من أعمال لتخالف صحيح الدين وما من شأنه أن يكون ذريعة للشرك أو أن يكون شركاً أكبر.

فنجد من ذلك التبرك بالقبور والأضرحة من أبرز هذه الصور اعتقد القبوريون على أنهم بزيارتهم الأضرحة والقبور سينالون البركة ويشفون من أمراضهم أو يفكون عقم نسلهم ومن ثم نراهم يقومون بأفعال وأعمال تخالف المنطق والعقل فنراهم يمسون عمامة صاحب الضريح أملا فى شفاء أوجاع الرأس ويمسون قفطانه للعلاج من الحمي ولحس الحجر لفك عسر اللسان، تمسح النساء فى الضريح أملا فى إنجاب الذكور ويصور لنا هذه الصورة الأستاذ "عبد الرحمن الوكيل " والتى تعد نموذجا لما يحدث حول الأضرحة فيقول: "...كنت أطوف حول البدوي، حتي إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة و فى مقصورته أنقذت يدي فى رعشة التقديس حتى إذا ألمس ستر القبر ثم أخرجها رويدا رويد فى حرص وحذر بالغين و قد صممت قبضتها على .....على ماذا؟

كنت أوقن حين ذاك أني أضعها على بركات سماوية تفيض من روح الله على القبر ثم أبسط يدي فى جيبي ثم أمسح بها وجهي رجاء أن أكون ميسر الرزق داني قطوف النجاح مشرق الوجه بنور الله[1].

---

(1) جهود علماء الحنفية فى إبطل عقائد القبورية ص ٧٤٤-د شمس الدين السلفي الأفغاني.

بل وصل الأمر مداه عند بعض الرجال المخرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند أضرحة الأولياء بدعوي نيل البركة فهذا الشعراني يذكر من كرامات البدوي "أنه دعاه إلى فض بكارة زوجته فوق قبة قبره فكان الأمر[1]، انظر كيف وصل بهم الحال إلى ارتكاب ما تأباه الطبائع عند القبور بحجة التبرك على ما يزعم القوم مما يؤدى فى النهاية إلى فتح باب الرقى والتمائم الشركية على مصراعيه. وإذا نظرت إلى أحوالهم عند القبور تجد العجب العجاب والشرك الذى لا يخفى على ذوى الألباب.

فهذا مثبت بالضريح معانقا ومقبلا، وهذا لم يستطع الوصول إليه من شدة الزحام فيقعد ملوحا وبالدعاء متمتما، وهذا من شدة الخشوع والخضوع خر على العتبات مقبلا وبدموع الندم باكيا وإذا نال البركة الكبيرة فما عليه إلا يأتي بالطفل الصغير ليعلمه كيف يكون التعظيم والتقديس.

فهذا طفل صغير يحمله أبوه ويدعوه إلى تقبيل الأعتاب والأخشاب حتي يفوز بالبركات وينعم بالرضوان من هذا الولي الذي علمه كل ما هو ماض وحاضر وآت وتناسي الجميع فى زمن الجهل والغفلة قول الصادق الأمين "كلُّ مولود يولد على الفطرة".

لأنهم فى حضرة الولى الكبير الذي يفاخرون بأنهم يستمدون منه السر ويستلهمون منه الولاية ويستعينون به على إتيان الكرمات ويمطرونه الرحمة ويكادون أن يستغنوا به عن الله وأن سلطانهم لقوي لا يخشي بأس منكر ساخر فلا يعبأون بمن طعن فى تصوفهم أو اتهمهم بالجهالة أو الخروج على ظاهر الشرع ففي شيخهم الأكبر فى قبره غناء وأي غناء[2].

وقد تعددت الطقوس التى يمارسها المعتقدون فى القبور تعددت إلى كثير من الصور التي تجسد الشرك بدرجاته المختلفة فلقد اعتادوا الصلاة إلى القبور، والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية

---

(1) هذه هى الصوفية ص ٤.

(2) التصوف فى مصر ص ١٤٥، د/ توفيق الطويل.

وقضاء الديون وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفان وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم[1].

ومن صور الانحراف أيضا القسم بالأولياء والحلف بهم يقول الإمام الصنعائي "ويقسمون بأسمائهم بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالي لم يقبلوا منه، فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه.

وإلى الأولياء توجه القوم بالدعاء والاستغاثة لا سيما إذا كان الدعاء عند قبورهم وأضرحتهم، ومن شعائرهم عند القبور التي تخالف صحيح الدين وتقوض بنانه المتين النذْرُ، والذبح لغير الله، فيذبحون الذبائح عندها تماما كما كانت تفعل الجاهلية عند أوثانها، ولا شك أ، النذر والذبح من العبادات التي لا تجوز إلا لله تعالي.

ويقول الإمام الصنعائى "والنذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه قبرا أو مشهداً والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية فإن من شرب الخمر وسماها ماء ما شرب إلا خمرا[2].

وإلى مثل هذا ذهب الإمام الشوكاني حيث قال" ومن المفاسد البالغة إلي جدير التى ترمى بصاحبها وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان الدين، أن كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر متقربا به إليه راجيا ما يضمن حصوله منه فيهل به لغير الله ويتعبد به لوثن من الأوثان إذا لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثنا وبين قبر لميت يسمونه قبراً ومجرد الاختلاف فى التسمية لا يغني من الحق شيئاً[3].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه فما زال الشيطان يزين لهم أعمالهم حتي آل الأمر بهم، أن شرعوا للقبور حجا، ووضعوا له مناسك حتي صنف بعض غلاتهم فى ذلك كتابا وسماه مناسك حج المشاهد مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفي أن هذا مفارقة لدين الإسلام

---

(1) إغاثة اللهفان ج١ ص ١٩٤.

(2) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ص ١٩-١٨، للأمير الصناني.

(3) شرح الصدور بتحريم رفع القبور ص ٢ الشوكاني.

ودخول فى دين عباد الأصنام[1]، الأمر الذي حدا بالفقه بهم إلى الزعم بأن الحج ينفع إليهم وقد تقبل العامة من الناس هذا الكلام ففي صعيد مصر يزعمون أن الطواف سبع مرات حول قبر القناوي بقنا فيه غناء عن أداء الحج إلى بيت الله الحرام، وإذكر فى طفولتي رجلا من أهل قريتي كان يقوم كل جمعة بالذهاب ماشيا إلي ضريح شبل بالشهداء فلما سألت عن ذلك قيل لى إن من يزور قبر شبل سبع مرات ماشيا تكتب له ثوابُ حجة.

وعلى ذلك فليس بمستغرب على سدنة هذه القبور أن يقولوا على الزائرين حجاجا ويصل الغلو مداه وترتفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون إلى إضافة التخصصات للأضرحة بعد تقسيم درجاتها إلى كبري وصغري فمثلما كان للإغريق من بعدهم للرومان إله لكل شيء إله الحرب وإله الحب وإله الخير وإله الشر وإله للخمر.

نجد أ، القبوريين على نفس المنهج قاموا بتخصص مختلف فيشتهر بعض الأولياء بالتوجه إليهم لتحقيق رغبات النساء كالزواج للعوانس والإنجاب للعاقرات كمقام الشيخة مريم وضريح عز الرجال بطنطا شفاء الأطفال ومن ضريح الحدري المعروف بالعمري شفاء أمراض الروماتيزم بل وصل الحال بهم إلى الاستشفاء بتراب القبر والأضرحة، الأمر الذي أدي بجانب الاعتقاد الخاطيء إلى تخلف اجتماعي خطير حيث استغني الناس بالأضرحة عن الطب وعلومه.

قطوف دانية لحقائق باقية:

الإنسان هو المكرم بعقله من قبل الله لذا فإنه ليس من الطبيعي أن يتوجه هذا المخلوق المكرم بالعقل إلى قبر أو حجر أو شجر بالدعاء لأن ذلك فيه حط لكرامة الإنسان لأن هذه الصورة الساذجة للأعمال المنافية للعقل لا تنطلي على الإنسان المكرم بعقله والمميز بفطرته إذ لابد من وجود حجج وحيثيات تزين له هذا الانحراف وتسوغه له .

وهنا نجد سؤلا يفرض نفسه علينا مفاده:

كيف تبدأ علاقة القبوريين بالقبر أو الضريح؟...وكيف تنتهي بهم إلى هذا الانحراف الخطير والذي يؤدى بهم إلى الشرك من حيث لا يعملون؟...

---

(1) إغاثة اللهفان ج1 ص ١٩٤.

نقول إن العلاقة تبدأ بتقديس الرمز رمز الصلاح والتقوي والمنزلة الرفعية عند الله لذا تستحب زيارته ليس لتذكر الموت، بل لتذكر الرمز والاعتبار به ولما كانت هذه الأماكن مباركة والملائكة تنتشر حولها فإن دعاء الله يحسن عندها بل هو عندها أرجح منه فى البيت والمسجد كما أن البركة تفيض على كل شيء حول القبر فمن أراد التزود منها فيلمس ويقبل ويتمسح فإذا تقرر ذلك هبط إلى دركة تالية، من دعاء الله عنده إلى الدعاء به والإقسام على الله به، أي اتخاذه واسطة ووسيلة للاستشفاع به عند الله، فى أو حال خطيئته غير مؤهل لدعاء الله، فإذا تقرر ذلك هبط إلى دركة تالية فما دام هذا المقبور مكرما فليس بممتنع أن يعطيه الله القدرة على التصرف فى بعض الأمور التي لا يقدر عليها طالب الحاجة، فيصير صاحب القبر، يرجي ويخشي ويستغاث به ويطلب مه المدد ولم لا؟...فهو صاحب السر الذي توجل منه النفوس وترتجف له القلوب وتتحير فيه العقول"[1].

عندئذ يزين لهم الشيطان الباطل فى عيونهم فتراهم يتخذون قبره وثنا يعكف عليه ويوقد عليه قنديل، ويعلق عليه الستور ويبني عليه المسجد، ويعبد بالسجود له والطواف به وتقبيله وأستلامه والحج إليه والذبح عنده ثم ينقله الشيطان لدرجة أخري: إلى دعاء الناس إلي عبادته ، ومنسكا، وأن ذلك انفع لهم فى دنياهم وأخرتهم[2].

والملاحظ أن الأمر ليس مجرد طقوس مجردة بل هي أعمال جوارح، نتجت عن أعمال قلوب، حركتها اعتقادات وتصورات رسخت في القلوب وتخللتها ودأبت فيها.

إذ إنه من المتعارف عليه، أن مبدأ كل علم نظري وعلم اختياري هو الخواطر والأفكار فإنها توجب التصورات والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقضي وقوع الفعل وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار وفسادها بفسادها.

وعلى هذا نرى أن من يدعو الأموات ويهتف بهم "عند الشدائد ويطوف بقبورهم ويطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يصدر منه ذلك إلا عن اعتقاد كاعتقاد

---

(1) دمعة على التوحيد ص ٩٩.

(2) غاثم اللهفان ج١ ص ٢١٧.

أهل الجاهلية فى أصنامهم هذا إن أراد من الميت الذى يعتقده ما كانت تطلبه، الجاهلية فى أصنامهم من تقربهم إلى الله، فلا فرق بين الأمرين.

وإن أراد استقلال من يدعوه من الأموات بأن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله فهذا أمر لم تبلغه الجاهلية[1].

وإذا اطلعت على أحوالهم عند القبور لم تزدد إلا عجبا لما ترى من رقة قلوبهم وخشوعهم عندها "فإن عباد القبور يعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه فى المساجد، ولا يحصل لهم فيه نظير ولا قريب منه[2].

ولعل السبب فى ذلك أن (الشيطان غرهم فقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين كما كنتم أشد لها تعظيما، وأشد فيها غلوا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد[3].

ومن أراد القرب فعليه بالزيارة وتقديم القرابين وذبح عند القبر لينال الرضي فى الدنيا والآخرة ولتذهب عنه الأمراض وتأتيه الأرزاق رغدا من كل مكان.

وكل هذه أمور تشغل بال كل إنسان وتملأ عليه فكره وعقلة فإذا وجد من يكفيه ذلك فإنه لا محالة له سيرتمي فى أحضانه وعلى هذا الوتر الحساس فى حياة الناس، ضرب الشيطان فانقادوا له أفرادا وجماعات لا سيما إذا تقرر عندهم ونزل منزلة الصدق فى قلوبهم.

ما ردده الأدعياء من أن الولى معك فى كل مكان من ذلك قول خليفة البدوي: أن السيد البدوي موجود معك أينما كنت، ولو استعنت فى شدتك وقلت يا بدوي مدد لأعانك وأغاثك.

فانظر إلى هذا الكلام الذى تناقلته وسائل الإعلام فالرجل البدوى له قدرة الوجود معك فى كل مكان مع أنه من المعلوم لذوى الألباب أن الذى معك فى كل مكان هو الواحد الديان بنص القرآن "وهو معكم أينما كنتم".

---

(1) رسالة وجوب توحيد الله للشوكاني ص ٨.

(2) إغاثة اللهفان ج١ ص١٩٨.

(3) إغاثة اللهفان ج١ ص١٨٩.

فكيف اختص البدوى بذلك؟...وما هو الدليل عليه؟...وعلى هذا فإن العجب يزول عندما نري أهل القبور أمام قبر الولى، فهم يركعون ويتوسلون إليه اعتقادا منهم أن الولى ينظر إليهم ويراهم وأن دوحته الطاهرة تحوم حولهم.

خصائص وعميزات أعطوها لأوليائهم حتي تقتنع العامة بما يقولون فيسقطون فى شباكهم ويسهل عليهم بعد ذلك معتقداتهم فى نفوسهم.

ثم إنك إن ذهبت تقوم ما أعوج فى دينهم اتهمت فى دينك وولائك للأولياء الذين بأيديهم مقادير الأشياء وبحبهم وبالتقرب إليهم برتفع الإنسان إلى عنان السماء.

ومضات مضيئة على طريق الإصلاح:

فى وسط هذا الجو المظلم الذى يحيط بنا جراء ما أحدثه القبوريون وأتباعهم نرى بين الحين والآخر ومضات مضيئة تأخذ بأيدى المسلمين إلى صراط الله المستقيم تقوم ما اعوج وتصلح ما فسد وتحاول إرسال العقيدة الدينية إرساء سليما قوامه كتاب الله وسنة رسوله-ﷺ-.

ولكن الملاحظ على هذه الدعوات الإصلاحية أنها أرادت أن تسوق إليها الناس بقوة السلاح كما أنها فى علاجها لهذا الأزمة تعلقت بالظاهر دون الباطن وبالعرض دون أصل الدواء ويبقي أصل الدواء كما هو ينخر فى البنيان التوحيدى حتى تسقط الأمة فى هوة سحيقة من البدع والضلالات الاعتقادية.

إن تقديس القبور والأضرحة يعمل فى أعز ما تملك هذه الأمة وأبرز ما يميزها وهو التوحيد وأن من علامات صحة الجسد إحساسه بالألم فالجسد الميت أو الواقع تحت تأثير مخدر لا يحس بالألم رغم وجود مقتضاه وهذه فى هذه الأمة لا تموت ولا تنتهي إلا عند الإذن بانتهاء الحياة فى هذه الدنيا ولكنها قد تدخل فى غيبوبة عن أمر دينها أو لأمر دنياها إما بسبب غفلة من أبنائها أو بسبب كيد من أعدائها أو بكليهما وعند ذلك فإن كل من يساهم فى إزالة أثر المخدر وكل من يساعد فى إيلامهما أو إظهار ألمها فإنه يضرب بسهم فى معافاتها لأنها عندما تحس بالألم تعرف أنه أصابها داء وعندما تدرك أنها مريضة تبحث عن الداء الذى أصابها لتقضى عليه وتفيق من رقادها.

من هنا يرى أن الواجب على كل مسلم أن يبذل جهده لإنقاذ الغارقين فى غيبوبة الخرافات والأوهام الشركية الذين أوشكوا على الهلاك والناظر بعينيه يرى أن الغلو فى القبور

بشتى صوره وأنواعه قد عم وطم فى غالب البلاد وقد تلبس بهذه المظاهر الشركية كثير من الناس وصارت هذه القبور مزارات ومشاعر يقصدها الناس ويشدون إليها الرحال من سائر الأمصار.

وسدنه هذه الأضرحة وعلماء الضلالة يزينون الشرك للعامة بشتى أنواع الدعاوى والشبهات ويأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله تعالى.

من هنا نرى أن المهمة ليست بالأمر الهين اللين بل تحتاج إلى صبر طويل حتى يصل الداعى إلى هدفه وغايته فى علاج انحرافات القبور.

وذلك ببيان قصور الأدلة التى يعتمد عليها القبوريون من خلال بيان تهافتها وضعفها فإذا كان أهل السنة مثلا ينطلقون من منهج أصيل فى التلقى والاستدلال فإن القوم يعتمدون فى استدلالهم على المنامات والأحاديث المكذوبة والحكايات المزعومة.

فتراهم يحتجون بأحلام شيطانية على تجويز كفرهم بالله تعالى من ذلك أن أبا المواهب الشاذلى يقول "رأيت رسول الله -ﷺ- قال لى إذا كانت لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فلسا فإن حاجتك تقضي"[1].

فهذا حلم شيطاني ونقض لمقام النبي -ﷺ- الذى مكث ثلاثة وعشرين عاما يدعو إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ويسد كل طريق يفضى إلى الشرك.

وعلى كل فإن المنامات لا يمكن ضبطها وصاحبها ليس نبيا معصوما ومن ثم فلا يجوز الاعتماد عليها ولا الاستدلال بها.

وكذلك مشاهد تضاف إلى بعض الأنبياء والصالحين بناء على أنه رُئى فى المنام هناك ورؤية النبي -ﷺ- أن الرجل الصالح فى المنام ببقعة لا يوجب لها فضيلة تقصد البقعة لأجلها وتتخذ مصلى بإجماع المسلمين وإنما يفعل هذا وأمثاله أهل الكتاب[2].

---

(1) طبقات الشعراني ج٢ ص٧٤.

(2) اقتضاء الصراط المستقيم ج٢ ص ٦٥.

ومن افترائهم أيضا أنهم يحتجون بأحاديث مكذوبة مثل (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور)، فهذا لا يوجد فى شيء من كتب الحديث المعتمدة[1]، من هنا يتبين لنا أنه لا يوجد دليل صحيح صريح لدي القوم فى تجويز استغاثتهم بالقبور وأهلها.

بل إن القوم قاموا بخلط الأوراق بعضها مع بعض فصاروا يطلقون لفظ التوسل مثلا على الاستغاثة بالقبور ودعائها فيظن البعض أن مرادهم التوسل إلى الله بالذات أو الجاه فيقع اللبس والإشكال وفرق كبير بين التوسل عندهم وعند أهل العلم والصلاح فهم يطلقون التوسل على الاستغاثة بغير الله ودعائه رغبا ورهبا والذبح والنذر والتعظيم بما لم يشرع فى حق مخلوق.

وأهل العلم يطلقونه على المتابعة والأخذ بالسنة فيتوسلون إلى الله بما شرعه لهم من العبادات وبما جاء به عبده ورسوله محمد-ﷺ-بحيث لا يخرج التوسل عن الإطار الذى رسمهم الشرع الحنيف.

وفى هذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : "...إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي-ﷺ-على أساس أن الداعى أن الطالب أراد أن يقدم بين يدى طلبه ما يكون سببا للإجابة ممن هو متفرد بالعطاء أو المنع وهو مالك يوم الدين ومن هنا نعلم أن الرزية كل الرزية والبلية كل البلية تمكن فيما يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص فى أهل القبور وفى المعروفين بالصلاح من الأولياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل ونطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالا ويصرخون بأسمائهم ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع ويخضعون لهم خضوعا زائدا على خضوعهم عند وقوفهم بين يدى ربهم فى الصلاة والدعاء وهذا إذا لم يكن شركا فلا ندرى ما هو الشرك وإذا لم يكن كفرا فليس فى الدنيا كفر[2]".

تلك هى الصورة المؤلمة لما عليه غالب المجتمعات الإسلامية احترام وتقديس وطلب النصر من أصحاب القبور فى وقت هم أنفسهم بحاجة إلى من يدعو لهم الله خاصة إذا علمنا أن

---

(1) مجموع الفتاوي ج1 ص ٣٥٦.

(2) الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد ص ٨ للشوكاني.

المقصود من الصلاة على الميت الدعاء له والشفاعة فيه عند الله فبدل أهل الشرك والبدع قولا غير الذى قيل لهم بدلوا الدعاء لهم بدعائه نفسه والشفاعة له بالاستشفاع به.

وقصدوا بالزيارة التى شرعها رسول الله -ﷺ- إحسانا إلى الميت وإحسانا إلى الزائر وتذكيرا بالآخرة سؤال الميت والاقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذى هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه، ومن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعا او عملا صالحا ويصرف عنه القرون المفضلة بنص رسول الله -ﷺ- ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون[1]، وإذا كان صحابة النبي -ﷺ- لم يثبت عنهم ولا عن واحد منهم بنقل صحيح أو ضعيف أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها أو تمسحوا بها فعلى أي دليل يعتمد هؤلاء؟...

ومن أين نشأ هذا التقديس للقبور الذى نراه لدى الصغير والكبير جيلا بعد جيل؟!...

إن هذه الاعتقادات حول القبور وأهلها أمور صادرة فى الأساس (عن العامة الذين إسلامهم تقليد للآباء بلا دليل ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل بلدته يلقنونه أن يهتف باسم من يعتقدون فيه أو يراهم ينذرون له، ويرحلون إلى محل قبره، فنشأ على هذا الصغير وشاخ عليه الكبير ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير[2].

وقد يتساءل البعض ممن جرفهم هذا التيار: إذا كان الأمر على ما تقول فلماذا يسكت العلماء على هذا الداء؟...هل ترى معى أن سكوتهم دليل على الرضاء والقبول؟.....

نقول فى الإجابة: على هذا إن سكوت العالم على وقوع المنكر ليس دليلا على جواز ذلك المنكر كما أن سكوت العلماء عن هذه المظاهر الشركية ليس معناه القبول والرضا والإقرار فما، كل سكوت رضا فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلامه فكيف يقوى فرد على دفعه عما أراد[3].

---

(1) إغاثة اللهفان ج1 ص221.

(2) تطهير الاعتقاد ص 36.

(3) تطهير الاعتقاد ص 41.

إلاَّ أن هذا لا يعنى التماس العذر للعلماء بل ينبغى عليهم أن يواجهوا هذه الأفكار والبدع الضالة حتى يعود المسلمون إلى رشدهم وإلى عقيدتهم الصافية التى أرسى دعائمها المصطفى -ﷺ- لا سيما وكتاب الله وسنة نبيه بين أيديهم.

لذا ينبغى على العلماء والباحثين العمل على :

أولا :

العناية بتقرير التوحيد فى تلك المجتمعات والعمل على تجلية مفهوم التوحيد وبيان ضرورة تعلق القلب بالله سبحانه وتعالى وأن المنفرد بالنفع والضر والخلق والتدبير هو الله ومن ثم فهو المعبود بحق مع بيان عجز المخلقون وضعفهم وأنهم لا يملكون لانفسهم فضلا عن غيرهم ضراً ولا نفعاً ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

ثانيا :

دعوة المخاطبين إلى تدبر آيات القرآن وحثهم على التأمل والتدبر والتفكير فى معاني القرآن.

ثالثاً:

بيان معنى الولاية وأن الولى لا يملك لنفسه شيئا سواء جلب مصلحة أو دفع ضر وان كل شيء فى الكون بأمر الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين